لم يكن حيّ الإسماعيلية سوى جزء من الإنجاز المعماري الهائل لإسماعيل الذي اشترى في سنوات معدودة ٤٥٠ جسرا، وألف ميل من قضبان السكة الحديد وأسلاك البرق، وأنشأ مدارس ومؤسسات ومسارح ومتحفا للآثار ودارا للكتب، وشيد قصورا وحدائق استقدم لها مهندسين أوروبيين يُعجز معظمنا تذكر أسمائهم أو نطقها بشكل سليم. وفّر المال اللازم لتلك النهضة المعمارية رواج القطن المصري في السوق العالمي، ووجود خل وفيّ يحسن التفتيش في ررق الفلاحين، والاستدانة. وقد لا يضرنا هنا، وإنْ كان يخرج بنا قليلا عن السياق، أن نشير إلى أن الاتساع العمراني الذي شهدته القاهرة في عصر إسماعيل، لا يضاهيه سوى ما شهدته المدينة قبل ذلك بخمسة قرون في عهد الناصر قلاوون، مع فارق واحد في مصير الرجلين والبلد.

مات إسماعيل منفيا وهو في الخامسة والستين، ولكن صورته الأخيرة تظهره أكبر كثيرا من سنه، يبدو وهو جالس طاعنا مهدما: عظمتان بارزتان أعلى الوجنتين، جفنان متهدلان، ووجه نحيل مسحوب باتجاه شاربين ولحية لا أثر فيها للون سوى الأبيض، يرتدي سترة شتوية ثقيلة تحتها قميصان وفوقها عباءة من صوف مضفّر، وقطعة من فراء الغنم تغطي بطنه وساقيه.

أراد إسماعيل، أثناء مرضه الطويل، العودة إلى مصر كي يموت فيها ولم يُسمح له بذلك. لاحقا، حُملَت رفاته إليها ودفن بجوار والدته. لم يدفن في الحيّ الذي أنشأه بل شرقيّه فَي الرفاعي، وواصلت الإسماعيلية نموها على الطريقة التي أرادها، يخطط لها معماريون نمساويون وفرنسيون وإيطاليون وسويسريون، مع تعديل بسيط في خطة الحيّ وعلى أطراف الميدان الذي يحمل اسمه: قصر النيل شمال الميدان صار ثكنة لجنود الاحتلال، وقصر الدوبارة جنوبه صار مقر الحاكم الفعلي للبلاد: إفلين بيرينج المعروف باسم لورد كرومر.

حكاية الولد الذي عالج عينيه في فيينا وسحرته مبانيها واعتلى عرش مصر